الأنا والآخر في الرّواية الجزائرية
قراءة في نص (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك) لعمارة لخوص
le Moi et l'Autre dans le roman algérien. Etude du roman
(comment téter une louve sans être mordu) de amara Lakhous

د. فايد محمد/أستاذمحاضر (أ).
المركز الجامعي تيسمسيلت / الجزائر
faid.med20@yahoo.com

ملخص البحث

تضمنت نصوص روائية جزائرية كثيرة مشاهد تُصوّر العلاقة بين الأنا والآخر، ولكنّ نصوص الكُتاب المهاجرين ناقشت تلك العلاقة بصورة موسّعة، ذلك أنّ أصحابها يعيشون في مجتمعات غربية، ويتمكّنون بفضل حسّهم الإبداعي من رصد، لحظات الصدام الناتجة عن سعي طرف إلى اقصاء طرف آخر، أو احتقاره، أو تسخيره لخدمة مصالح بعينها.

ولكن هؤلاء الكتاب بوصفهم من النخب المُثقفة يجعلون أقلامهم ومن خلالها نصوصهم، خادمة لحوار الحضارات، فينتج عن ذلك خطاب أدبي يحمل قيم الإنسانية، إن الرّواية التي اخترنا الاشتغال عليها في هذه الورقة البحثية هي (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك؟) للروائي الجزائري عمارة لخوص، المُقيم في إيطاليا، ترسم بعناية فائقة علاقة المهاجرين من مختلف الجنسيات بسكان إيطاليا، ولا أدل على ذلك من أنّ الروائي عندما تَرجم نصه إلى الإيطالية، صَدَّره بعنوان جديد هو (صِدام الحضارات حول مصعد في ساحة فيتوريو) .

الكلمات المفتاحية: الأنا، الآخر، حوار الحضارات، الهجرة، المهاجرون

Résumé :

Les scènes illustrant la relation entre le moi et l'autre figurent dans beaucoup de romans algériens, mais cette relation est profondément étudiée et exprimée dans les écrits des romanciers émigrants.

Grace à leurs sens créatif et leur contact direct avec les sociétés occidentales, ces écrivains émigrants ont observé de près le dialogue des civilisations ainsi que les conflits résultant des tentatives d'exclusion, de

mépris ou d'exploitation de l'un ou de l'autre pour servir à des intérêts spécifiques.

Ces écrivains, qui représentent l'élite instruite, ont alors sacrifiés leurs romans au dialogue des civilisations et ont produit des textes littéraires chargés de valeurs humaines.

Le roman que nous choisi pour notre recherche (comment téter une louve sans être mordu) de amara Lakhous qui réside en Italie, illustre soigneusement la relation entre les émigrants multinationaux et les italiens. C'est pourquoi l'intitulé du roman a été modifié après sa traduction en italien pour devenir (conflit les civilisation sur l'ascenseur à Vittorio Square)

Mots clés : Le moi, l'autre, dialogue des civilisations, l'émigration, les émigrants.

– حوار الحضارات ضرورة إنسانية لا مجرّد ترف فكري :

تبحث الإنسانية منذ فجر التاريخ عن السلام، ولكنّها من حيث تدري، ومن حيث لا تدري تنتهك عَدِيدَ محاولات بناء ذلك السلام. لأجل ذلك نعتقدها وصلت اليوم إلى هذه المرحلة الخطيرة، حيث الفتنة والقتل والخراب ينهش البشر في أماكن عدّة من المعمورة، أمّا المناطق التي يَعْتَقِدُها جُلُّنا آمنة فهي الأخرى يَنْتَهِك ساكنتها فراغ روحي رهيب، إنّنا اليوم أكثر من أيّ وقت مضى في أمسّ حاجة للتفكير في الوضع الإنساني بحثا عن سكينة تجمع البشر جميعا، وتُتيح لهم فرصة إعمار الأرض تكاتفا وتسامحا، لا عداوة ونبذاً وقطيعة ورفضا لكل من لا يشبهنا في اللغة، والعقيدة والعِرق واللون والفكر.

استنادا إلى ما سبق نقول إنّ حوار الحضارات والتقريب " بين الأديان لم يعد بعد اليوم مسألة من اختصاص رجال الدين ... ولكنّه لأوّل مرّة في التاريخ ضرورة عاجلة

بالنسبة إلى السياسة الدولية، فهو يستطيع أن يجعل أرضنا أكثر قابلية للسكن لأنَّها ستصبح أكثر هدوءا وإخاءً"[1] ، إنّ المنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية، ومجمل فعاليات المجتمع المدني، وكلّ الحكومات وفي مختلف أقطار العالم مدعوون في ظِلّ معيش البشر اليوم، إلى تجاوز الخلافات والتعالي عن المصالح الشخصية الضيّقة لحماية المعمورة، ولن يتحقّق ذلك إلاَّ عن طريق ترسيخ الحوار ركيزة أساسا لحل النزاعات المحلية والإقليمية، لأنّنا اللحظة أمام خيار تاريخي فحواه "إمّا السلام في كلّ المعمورة أو إبادة المعمورة نفسها"[2]، خاصة ونحن نحتفظ بذكريات سوداء عن صراعات وحروب صيَّرت ملايين البشر أشلاء ورسّخت لدى البعض الكراهية والبغضاء وحب الانتقام.

إنّنا نتُوق إلى عالم يَشِيع فيه الصفاء، ويتغيَّر فيه المعجم المفرداتي الدال على الصراع، لصالح الحوار والتثاقف البنّاء، فالإنسانية تستحقّ وضعا أحسن من الّذي عاشته طيلة قرون خَلَت وتعيشه اللحظة بطعم القهر نفسه، والحق أنّ الصفاء المنشود لا تؤدّي كلّ الطرق إليه، وحده الحوار يصنع السلام والطمأنينة.

يُقَدِّمُ حوار الحضارات والثقافات نفسه الآن بوصفه ضرورة، خاصة أنّ لا أحد يستطيع في ظلّ التطوّر التكنولوجي الذي جعل العالم قرية صغيرة "أن يَعزِل نفسه في هُوية مغلقة"[3] ، ذلك أنّه يَظلُّ دائما محتاجا للتفاعل مع الآخرين، لا لإفادتهم فقط إنما ليسهل عليه بناء ذاته وفق متطلبات العصر "لأنّ الانفتاح على الحضارات الأخرى والحوار معها يبثُّ الحيوية في مكوّنات الهوية فتنأى عن السجال ويحلَّ التفاعل الخصب محلَّ الانغلاق، والتأثر الشفاف والتفهم محلّ الكراهية"[4]، على اعتبار أنّ الجهل بالآخر وغياب قنوات التواصل الحواري يخلِق ولو بعد حين صراعا ما، في حين أنّ تَقَبُّلَ وجود ثقافة أخرى بكلّ مكوناتها يؤدّي بالضرورة إلى تجنب كلّ أسباب الصراع.

ينبغي أن يُجَسَّد حوار الحضارات، وأن يستمرَّ "أولا لنفهم أفضل فأفضل الآخرين الذين يعاصروننا، أولئك الذين أصبحنا نعيش معهم جنبا إلى جنب، ولكن أيضا لنفهم أنفسنا أكثر، وهو فهم يمرُّ بالضرورة عبر المقارنة والمواجهة، فمن لا يعرف إلا إنجلترا لا يعرف إلا إنجلترا، وأخيرا فإنّ الحوار بين الأديان [والثقافات] ليس مسألة خاصة أو شخصية أو محلية أو جهوية، وأبعاده الإجمالية بيّنة تماما كانعكاساته على

الوجود المشترك وطنيا وعالميا بين الشعوب"[5] هذا الوجود المشترك الذي يتآكل بفعل العنصرية ورفض الآخر.

- **حوار الحضارات بوصفه تجلّيا لثنائية الأنا والآخر :**

تَتَمَوْضَع ثنائية الأنا والآخر كمثل نسغ أساس، يحرّك هيكل حوار الحضارات، "سواء أكانت مظهرا من مظاهر الانقسام الذاتي في جسم المجتمع ... ككل على المستوى الديني أم كانت كذلك على المستوى العرقي، أم مظهرا من مظاهر التعارض مع الآخر الأجنبي الّذي يتحدّى الذات بالقوة وبالعلم، فهي إشكالية مسؤولة إلى حدّ كبير عن نشوء الشعور بالخصوصية الذاتية، مع ما [يتبع] ذلك من تلوين النشاط الثقافي بسمات مميزة تتفاوت من مكان لآخر"[6] ومن مجتمع لآخر، وهي إلى ذلك تحرّك آليا الرغبة في التعرّف على مسارات تطوّر وعي الآخر بذاته وبالأنا المقابلة له بوصفها آخر ينبغي فهمُه.

وفي عالمنا العربي تتجلّى علاقة الأنا بالآخر في ملمحين هما الصدام والحوار، بمعنى أنّ الآخر ليس مرفوضا دائما كما أنّه لا يلاقي القبول في كلّ الأحوال، انطلاقا من الاختلافات البيّنة في الانتماء والدين والفكر والعقيدة، "وتتَّضح إشكالية الأنا العربية الإسلامية والآخر الغربي بسبب سوء التفاهم والمواجهة السياسية والعسكرية. أمَّا علاقة الذات به من الناحية الثقافية والاقتصادية والتقنية فقد بدت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها"[7] لاعتبارات كثيرة أهمّها التأخر العربي في ركوب قاطرة التقدم العلمي لأسباب كثيرة أبرزها الصدام بين العرب والآخر المستعمر.

وذلك المستعمر لطالما ارتسم في أذهاننا تحت مسمى الغرب، ونعني به "ما استقر في الأذهان والخطابات السائدة في المجال التداولي العربي منذ بدايات القرن الماضي إلى اليوم، بخصوص هذا الآخر الحضاري الذي يمثل الحداثة والتقدّم والتقنية مثلما يجسّد القوة والغلبة والسيطرة إذ يحاول فرض لغاته وأفكاره وقيمه ومصالحه على الذات العربية الإسلامية، وعلى غيرها من الذوات الحضارية"[8] في مختلف أقطار المعمورة انطلاقا من الحقيقة التاريخية المتعلّقة بموجات الاستعمار واستغلال الشعوب، حيث لم

ينل ذلك الاستعمار من حرية العرب والمسلمين طيلة قرون وحدهم. بل فعل ذلك في مشارق الأرض ومغاربها. وبعض التيارات المتزمتة المنتمية إلى ذلك الغرب تسعى اليوم جاهدة إلى استثمار النتائج المؤلمة لأحداث 11 سبتمبر بأمريكا، التي غذّت الحوار الصدامي أكثر من التواصلي"[9]، ولا أدلّ على ذلك من معيش البشرية جمعاء خلال هذه المرحلة، حيث يكاد يغيب صوت الحوار الحضاري لصالح عنجهية استعمارية جديدة تدعمها تيارات متشدّدة هنا وهناك، ناهيك عن رغبة أطراف بعينها استثمار الصدام بين الشعوب لتحقيق المزيد من الإنجازات الفارغة التي تحصد المزيد من الأرواح وتريق الدماء تلو الدماء.

إنّ ثنائية الأنا والآخر إذا عولجت من منظور حوار الحضارات فإنّها لن تؤدّي بالضرورة إلى صِدَام، لأنّ الحوار إذا أُقيم على أسس احترام متبادل، من شأنه السير بالإنسانية إلى مزيد من السلام، سلام لا تستطيع الأديان وحدها تحقيقه "ولكنها تستطيع أن تساهم في تخفيف البغضاء والكراهية والتشدّد" [10] وإن هي نجحت في ذلك رسّخت وبصورة قطعية حوار الحضارات والحدّ من الحروب والفتن والصدامات.

- **تمظهرات علاقة الأنا بالآخر في رواية (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك) :**

أَثِيرَة هي إشكالية العلاقة بين الأنا والآخر لدى عديد الروائيين العرب، وفي الكثير من النصوص الروائية العربية، ولعلّ ذلك يُعزى بالأساس إلى طبيعة علاقة المجتمعات العربية بالآخر، والحق إن قارئ الرّواية العربية يستنتج أنّ هذه الأخيرة ما كاد بناؤها الفني يستوي "حتى شغلتها العلاقة بالآخر الأوربي الذي ظل لعقود فرنسيا وإنكليزيا، منذ (عصفور) توفيق حكيم، و(قنديل) يحيى حقي، ثم تعدَّد هذا الآخر، وتعقّدت العلاقة معه، وكان من ذلك الانتقال بها من موطنه إلى مواطن الذات أو النحن، وهكذا ظهر في هذا الشطر من الرواية العربية – والّذي سمي بالرواية الحضارية – الآخر السويسري على يد عبد الحكيم قاسم وسليم مطر كامل، وجميل عطية إبراهيم، وبهاء طاهر، والصيني على يد حنا مينة والإيطالي على يد عمارة لخوص

وصلاح الدين بوجاه والمجَري على يد محمد أسعد علي، وحنا مينة أيضا .. وصولا إلى أمريكا فيما كتب حليم بركات ..."[11] بالإضافة إلى عشرات النماذج.

لا نحتاج بعد الذي سبق تأكيد حضور ثنائية الأنا والآخر وقضية حوار الحضارات والثقافات قبولا أو رفضا في المنجز الروائي الجزائري، لأنّ أي قارئ متخصص باستطاعته تأكيد ذلك حيث ظلَّ الآخر حاضرا في المتن الروائي الجزائري منذ ما قبل الاستقلال إلى غاية يومنا هذا كيفما كان الحرف الذي كُتبت به النصوص، لقد عالج محمد ديب وكاتب ياسين ومولود فرعون، والطاهر وطار ومحمد عرعار العالي والحبيب السايح وأمين الزاوي وواسيني الأعرج وأحلام مستغانمي وابراهيم سعدي وعمر البرناوي وعشرات الكتاب الآخرين هذه القضية بطرائق متعدّدة. ونحن ومن خلال هذه الورقة البحثية نروم الاشتغال على نص (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك) للكاتب عمارة لخوص الذي صدر له باللغة العربية (البق والقرصان) و(القاهرة الصغيرة) وهو أحيانا يعيد كتابة نصوصه باللغة الإيطالية.

- **الروائي "عمارة لخوص" ترجمة مختصرة :**

الكاتب الروائي (عمارة لخوص) جزائري، من مواليد العاصمة سنة 1970، خريج كلية الفلسفة بجامعة الجزائر سنة 1994، وهو إلى ذلك كاتب مغترب حاصل على درجة الماجستير في الأنثروبولوجيا الثقافية سنة 2002 من جامعة روما في إيطاليا حيث يقيم منذ سنة 1995، شرع قبل سنوات في التحضير لأطروحة الدكتوراه بجامعة روما، موضوعها حياة المهاجرين العرب المقيمين بإيطاليا، صدر له النصوص التي ذُكرت سابقا، وينشط عمارة لخوص في عدة مجالات مثل الترجمة والصحافة[12].

- **رواية (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك).. ما يشبه الملخص :**

تجري أحداث الرّواية في روما، وتدور حول العلاقة بين سكان عمارة، تشهد جريمة قتل. ولأنّ بعض سكان العمارة من المهاجرين فإنّ أصابع الاتهام تُوَجَّه صوبهم

مباشرة، ونورد في الآتي أسماء وصفات شخصيات الرّواية من الإيطاليين والمهاجرين بحسب ترتيب ظهورهم في النص :

- (**أحمد سالمي**) (**أَمِديُو**) وهو جزائري، استطاع بفضل إتقانه اللغة الإيطالية، وحُسن معاملته للآخرين كسب محبة الجميع، ونظرا لثقافته واطلاعه الكبير على تاريخ إيطاليا وثقافتها لا أحد صدّق أنّه وراء جريمة قتل الشاب الإيطالي المدعو (**لُورانْزو مانفريدي**)، الجريمة التي اتُّهم بارتكابها لأنّه اختفى عن الأنظار يوم وقوعها، كما أن ساكنة العمارة من الإيطاليين والمهاجرين رفضوا تصديق ما أظهرته التحقيقات من كون (**أَمِدْيُو**) مهاجرًا وليس إيطاليًّا.
- (**بَرويِزْ مَنْصُوْر صَمَدِي**) إيراني، طالب لجوء.
- (**بِنِدِتَا إِسْبُوزِيتُو**) بوابة العمارة، وهي إيطالية من مدينة نابولي / جنوب إيطاليا، وهي من الشخصيات التي تعادي المهاجرين وتلصق بهم كلّ التهم.
- (**إقبال أمير الله**) مهاجر من بنغلاديش.
- (**إِلزابِتَا فَابْيَانِي**) إيطالية معادية للمهاجرين، تُظهِر الرّواية أنّها قاتلة الشاب الإيطالي الذي اتُّهم (**أمديو**) بقتله.
- (**مَارِيَا كرِيسْتِينا غُونْزَالِيزَا**) مهاجرة غير شرعية من البيرو (أمريكا الجنوبية)
- (**أنطونيو ماريني**) أستاذ بجامعة روما، وهو إيطالي من الشمال، لا يكره المهاجرين ولكنّه لا يحبهم.
- (**يُوهَانْ فَانْ مَارْتنْ**) هولندي هاجر إلى إيطاليا للدراسة.
- (**سَانْدرُو دَنْدِينِي**) إيطالي، صاحب حانة، وهو متضامن مع الأجانب بصفة عامة.

- (**سْتِفَانْيَا مِسَارُو**) إيطالية، زوجة (**أمديو**) وهي متضامنة مع المهاجرين، حتى إنها متطوعة في مدرسة، تدرِّس اللغة الإيطالية للمهاجرين.
- (**عبد الله بن قدور**) مهاجر جزائري.
- (**ماورو بِتاريني**) إيطالي، ضابط شرطة.
- (**لورانزو مانفريدي**) المدعو (**الغلادياتور**) إيطالي منبوذ، يعادي المهاجرين، ولأنه كذلك اتُّهِمَ المهاجرون بقتله.

تعالج الرّواية طبيعة العلاقة بين المهاجرين والإيطاليين، وهي علاقة ترصد الرواية حساسيتها، والرفض الذي يقابَل به المهاجر من قِبل بعض الإيطاليين حيث "إنّ الاعتراف بالثقافات الأجنبية لا يكون مرغوبا دائما للمجتمع، ففي كثير من المجتمعات يتمّ إقصاء الآخر الإنسان..."[13] لاعتبارات كثيرة، عرقية ودينية وثقافية وطبقيّة...

وفي رواية (كيف ترضع من الذئبة) لعمارة لخوص، التي ترسم حياة المهاجرين في إيطاليا يجدر "الإشارة إلى أن ساكنة مثل هؤلاء المهاجرين المنحدرين من مجتمع تقليدي، يوجدون أصلا في مواجهة مع متطلبات المجتمع"[14] الذي يهاجرون إليه، وينتج عن ذلك، تأرجح العلاقة بينهم وذلك المجتمع بين القبول تارة والرفض أخرى، وهو ما سنحاول تبيانه في الآتي من هذه الورقة البحثية.

- **صِدامية العلاقة بين الأنا والآخر في الرواية:**

يتموضع نص عمارة لخوص الموسوم بـ : (**كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك**) "ضمن الرواية العربية التي عالجت العلاقة بين الشرق والغرب"[15] ، وهي تناقش على وجه الخصوص "قضيّة الهجرة إلى أوربا وانعكاساتها على السكان الأصليين والمهاجرين على السواء"[16]، ويتميّز هذا النص الروائي بتقديم صورة جامعةٍ ترسم معيش مهاجرين من إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية وحتى من أوربا، وتدور أحداث الرواية في عمارة في العاصمة الإيطالية روما.

يَشْتَغِلُ المَنْجَزُ التخييلي للرواية –عيّنة الدراسة– "فكريا وجماليا ببناء تفاعل حضاري متمفصل إلى مستويين، المستوى الأول تغذّيه جمالية الحوار المؤسَّس فكريا على الاتصال باعتباره نسقا معرفيا وجماليا يعمق الوعي بالأنا، ويقوي أفقها المعرفي بالذوات النصية المنتمية للجماعة المتفاعلة والمتواصلة فيما بينها ... وهذا ما يساهم إغناء الكينونة الذاتية وتطويرها والخروج بها من شرنقة الهوية الضيقة، والمستوى الثاني مؤطّر بجمالية الصراع حيث يتحوّل الحوار دلاليا إلى أداة تكرّس سلطة النموذج الذي يتجه صوب ترسيخ الأحادية والأنانية والسيطرة والغطرسة، .. ممّا يدعم التقاطب والتعارض بين الحضارات والثقافات الإنسانية"[17]، هذا الطرح تمثّله نصيا على مستوى الرواية شخصيات (البوابة **بندتا إسبوزيتو**)، و(**إلزابتا فابياني**)، و(**لورانزو مانفريدي**)، حيث أبان هؤلاء رفضهم للآخر وكرههم له واحتقارهم لخصوصياته.

تعلِن البوابة (**بندتا إسبوزيتو**) رفضها للمهاجرين على مدار صفحات الرواية، وهي أثناء ذلك الرفض لا تُعْمِلُ الاستثناء، فالمهاجر مهما كانت جنسيته ومهما كان دينه يُشَكِّلُ بالنسبة لها كيانا مزعجا وآخر غير مرغوب فيه، لأنّه يترك بلده ويزاحم الإيطاليين في العمل، تقول عن ذلك "ما أكثر الشبان الإيطاليين الذين لا يجدون عملا شريفا، فهم مجبرون على السرقة والكسب غير المشروع. يجب طرد العمال المهاجرين وتعويضهم بأبنائنا المساكين"[18] وهي إذ تدعو إلى طرد العمال المهاجرين من العمل، لا تكتفي بذلك وإنما تصفهم بالمنحرفين وتستعجل السلطات طردهم من إيطاليا كلها، أو الزجّ بهم في السجون "أتساءل عن مصير الضرائب التي ندفعها للدولة أليس لحمايتنا من هؤلاء **المنحرفين**؟ لماذا لا يزجون بإقبال والألباني وبقية **المهاجرين المنحرفين** في السجون أو يطردونهم من البلد"[19] وهي تؤكّد على ذلك أكثر من مرة.

والملفت أن (**بنديا إسبوزيتو**) ترفض الآخر رفضا مطلقا حتى وإن كانت له انتماءاتها الدينية، فهي لطالما استفزت المسيحية البيروفية (**ماريا كرستينا غونزليزا**)، تقول هذه الأخيرة مخاطبة (**بندتا**) "لماذا تسيئين معاملتي رغم أننا ننتمي إلى دين واحد ويجمعنا حب الصليب ومريم العذراء"[20]، ويزداد الطابع الصدامي لعلاقة (**بندتا**)

بالمهاجرين بعد حادثة مقتل الشاب (**لورانزو مانفريدي**)، حيث وُجّهت أصابع الاتهام إلى المهاجرين على وجه الخصوص، تقول (**بندتا**) ممعنة في رفض الآخر واحتقاره: "أنا متأكدة من أن قاتل الشاب **لورانز مانفريدي** هو واحد من المهاجرين، ويجب على الحكومة أن تتصرف بسرعة، عما قريب سيطردوننا من بلدنا، يكفي أن تتجول بعد الظهيرة في حديقة ساحة فِيتوزْيُو لترى أن الأغلبية الساحقة من الأطفال أجانب من المغرب وروما والصين والهند وبولونيا والسينغال وألبانيا، إن العيش معهم مستحيل، لهم دين وعادات وتقاليد مختلفة عنا، في بلدانهم يسكنون في العراء أو في الخيام، ويأكلون بأيديهم، ويركبون على الحمير والجمال، ويعاملون النساء كالعبيد. أنا لست عنصرية، لكن هذه هي الحقيقة. ثم لماذا يأتون إلى إيطاليا؟ لا أفهم، البطالة منتشرة بكثرة عندنا ... إذا كانت فرص العمل غير متوفرة لأهل البلد، كيف نستطيع استقبال هذه الأعداد الكبيرة من المهاجرين؟ لا تخلوا نشرات الأخبار التلفزيونية يوميا من مشاهد سفن المهاجرين غير الشرعيين الذين يحملون الأمراض المعدية كالطاعون والملاريا"[21] ،ولعل القارئ لاحظ أنّ البوابة ورغم كل ما قالته، صرّحت بأنها ليست عنصرية.

ويتضح العداء للآخر لدى (**إلزابتا فابياني**) بصورة أكثر حدّة، فهذه الإيطالية تجعل المهاجر في مرتبة أدنى من الكلب، تقول : "تشهد ساحة فيتوريو من حين لآخر مسيرات للمطالبة بحقوق المهاجرين : الحق في العمل، الحق في السكن، الحق في الصحة، الحق في الانتخابات، إلخ، أنا أقول إنه من الواجب أن نبدأ بأهل البلاد الأصليين الذين ولدوا في إيطاليا، **والكلاب هم من أبناء هذا البلد**. أنا لا أثق في المهاجرين. قرأت مؤخرا في إحدى الصحف أن بستانيا مهاجرا اغتصب سيدة مسنة، أعطته كل شيء بطاقة الإقامة والعمل والسكن، هل هذا جزاء الإحسان؟ هل سمعتم في حياتكم عن كلب اغتصب سيدته؟"[22]، ولأنها متأكدة من صحة الصورة النمطية التي يرسمها الإعلام الغربي عن المهاجرين تضيف مؤكدة عداءها للمهاجرين واحتقارهم "الحقيقة أننا لسنا بحاجة إلى المهاجرين ... نستطيع الاستغناء عن المهاجرين بسهولة،

يكفي أن ندرب كلابنا تدريبا جيدا..."[23] ، فالكلاب من منظورها أرقى من الآخر (المهاجر).

إنّ "الجهل بالآخر أبرز أسباب رفضه"[24]، لأجل ذلك يستمرُّ تمظهر صِدام الأنا والآخر، بين الذوات النصية في رواية عمارة لخوص، فهذا الشاب (**لورانزو مانفريدي**) قبل مقتله يخاطب الإيراني (**باروبز**) قائلا :"أنت في بيتي، لا حقّ لك في الكلام. هل فهمت أيها **الأجنبي الحقير**؟ .. ثمّ أخذ يصرخ في وجهي إيطاليا للإيطاليين ! إيطاليا للإيطاليين ! إيطاليا للإيطاليين"[25]، هذه العنصرية ستجعل الذوات الممثِّلة للأنا في النص ترفض وضعها، فهذا (**عبد الله بن قدور**) المهاجر الجزائري، يعلن تمسُّكَه بانتمائه دينا واسما ولغة: "لن أغير جلدي ولا ديني ولا لغتي ولا بلدي ولا اسمي مهما حدث. أنا فخور بنفسي، ليس مثل المهاجرين الذين يغيّرون أسماءهم حتى ينالوا رضى الإيطاليين"[26]، خاصة وأنهم يَنفرون من كلّ الذين لا يشبهونهم في اللغة والعادات...

ولأنّ الآخر الغربي ورغم كونه مهاجرا أيضا يشعر بأفضليته فإنه لا يُصدّق أن يكون مهاجر عربي مثل (**أحمد سالمي**) **أمديو** مُلِمًّا باللغة الإيطالية وبالتاريخ والثقافة، فالطالب الهولندي (**يوهان فان مارتن**) لا يكاد يصدق أن أمديو أجنبي "أمديو أجنبي ! هل يعقل أن يكون الشخص الذي يمثل إيطاليا العظيمة أجنبيا؟ إنه الوحيد الذي يجيب عن كل أسئلتي المتعلقة باللغة الإيطالية والسياسية والمافيا والطبخ والسينما..."[27] ، لأن الرواية قدّمت (**أمديو**) على أنه صديق للجميع، للإيطاليين والمهاجرين، وبأنّه عارف بإيطاليا لغة وثقافة وتاريخا، لا أحد صدّق اتهامه بقتل (**الغلادياتور**) ولا أحد صدّق أنه مهاجر.

- **حوارية التفاعل بين الأنا والآخر في الرواية :**

يتأسّس المعطى التخييلي في نص (كيف ترضع الذئبة دون أن تعضك) "على أفق فني وجمالي، يتمثّل في قضية الشخصيات، لأنّ الرواية ترصد مسارا مشتركا لعدّة شخصيات، قوامه التفاعل والحوار رغم الاختلافات التي تميّزهم عرقيا ودينيا وثقافيا

وانتماء حضاريا وجغرافيا، وهي اختلافات غذّت الانفصال، لكنّها خلقت الاتصال وكرّسته ومنحته سمة خاصة ونوعية"[28]، عندما جمعت على الركح النصيّ **الإيطالي والإيراني والبنغالي والهولندي والبيروفي والإفريقي**، في فسيفساء رغم صدامية جلّ محطاتها، رسمت فضاء للتواصل البنّاء جسّده شخص (**أمديو**) الّذي تمكّن من الحصول على المحبة والاحترام من الجميع حتى لحظة اتهامه بمقتل الشاب (**لورانزو مانفريدي**).

يُعلن المهاجرون في الرّواية أنّهم لا يعادون الإيطاليين، يقول الإيراني (**باروز منصور صمدي**) في بداية الرواية "فلتكن الأمور واضحة من البداية أنا لا أكن أي عداء للإيطاليين"[29]، ويضيف إلى كلامه (**إقبال أمير الله**) البنغالي، طرحا تُجسّده حوارية العلاقة مع الآخر وتفاعل الثقافات والأديان "ما أجمل أن ترى المسيحي والمسلم كأخوين لا فرق بين عيسى ومحمد، ولا فرق بين المسيحية والإسلام، ولا فرق بين الإنجيل والقرآن"[30] فالمشترك بين الجميع هو الانتماء إلى الإنسانية.

هكذا تُقدِّم الرّواية "حياة التفاعل النوعي لمجموعة من الشخصيات التي ساقتها ظروف العمل والدراسة والهجرة ... فوجدت نفسها منخرطة في رباط صداقة نوعي ومثير لأنه رغم اختلاف لغات وديانات وجنسيات الشخصيات المشَكِّلَة له"[31]، أصبح نموذجا لصِدام الحضارات ولتفاعلها.

لم تُقدِّم الرّواية الإيطالي بوصفه معاديا للمهاجرين في كلّ الحالات، فشخصيات (**ستيفانيا مسارو**) زوجة أمديو، و(**ساندرو دنديني**) صاحب الحانة، بدت متضامنة مع الآخر المهاجر، فعمل (**ستفانيا**) في الوكالة السياحية لم يمنعها أبدا "من تكريس بعض الساعات في الأسبوع للتطوع كمدرسة للغة الإيطالية للمهاجرين"[32]، وصاحب الحانة يقولها علنا: "أنا لا أحقد على الأجانب : ألم يكن لاعب نادي روما الكبير فَالْكَاوْ أجنبيا ! ألك يكن سِيرِيزُو وفُولَرْ ولِينْدْهُولْمْ وإِيرِكْسُونْ وهَاسْلَرْ أجانب؟ هؤلاء الأجانب صنعوا مجد نادي روما ويستحقون التبجيل والتقدير والاحترام"[33]، وهذا أمر غير معترف به لدى (**بندتا**) كما أوضحنا سابقا.

غير أن حوارية العلاقة بين الأنا والآخر تُجابَه أحيانا "بإكراهات التحوّل التاريخي حيث تبرز مكونات الاختلاف والتعاطي أكثر [فتتحول] الكيانات الذاتية إلى موضوع للاتهام والمضايقة أو التفاخر والمباهاة"[34]، ما دفع **بأحمد سالمي (أمديو)** المهاجر، إلى مخاطبة أطباء العالم "يا أطباء العالم اتِحدُوا اخترعوا دواءً جديدا يشفي العنصريين من الحقد والكراهية"[35]، ثم تجاوز هذه الدعوة فراح يُذكِّر الإيطاليين بمعاناتهم سابقا في الولايات المتحدة الأمريكية: "أنتبه إلى مسألة إلصاق ظاهرة الإجرام بالمهاجرين بلا تمييز، كم عانى المهاجرون الإيطاليون في الولايات المتحدة من تهمة المافيا، لكن يبدوا أنّ الإيطاليين لم يتعلّموا من دروس الماضي"[36]، النتيجة جلية "للمهاجر وجه واحد عبر التاريخ رغم اختلاف لسانه ودينه ولونه وجلده"[37]، ولكن الحوار الجاد وتجاوَز الصور النمطية والمعتقدات القَبْلِيَة سيؤدي إلى تجاوز النَفَسِ الصدامي في علاقة الأنا بالآخر.

وفي الأخير نقول إنّه باستطاعتنا "حلّ إشكالية الأنا والآخر حين نرتقي بإنسانية الإنسان، فنتبنى قيما حضارية أنجزتها الأمم جميعا، مما يؤسّس لمدّ جسور التفاهم بين البشر بعيدا عن الهويات القاتلة، إذ يحدث الانفتاح على العالم الخارجي حيث يمكن أن نلتقي الآخر، مثلما يحدث الانفتاح على العالم الداخلي للأنا، بفضل قيم إنسانية خالدة مثل الحب والخير والعدالة"[38]، وتَجَنُّبِ الأحكام المسبقة مع الوعي بالمصير المشترك لساكنة المعمورة عبر مختلف مراحل التاريخ.

إنّ رواية (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك)، نص استطاع صاحبه بحق مناقشة إشكالية الأنا والآخر، من خلال استدعاء تركيبة متنوعة من الشخصيات ساعدت في خلق "تفاعل حضاري قوي اتخذ ملمحين اثنين الأوّل قوامه الحوار المغذّي للاتصال، والثاني أساسه الحوار المكرّس للانفصال"[39] على اعتبار أنّ الوصول إلى التفاعل الحضاري الإيجابي وعلى مرّ التاريخ الإنساني غالبا ما مرّ عبر جسر من الصدام والتواصل على السواء، على أمل أن تكون الغلبة للصوت الخيِّر في النفس البشرية في نهاية المطاف.

هوامش:

[1] هانس كينغ : لا سلام عالمي دون سلام ديني، ترجمة : ثامر الغزي، مجلة نوافذ، النادي الأدبي-جدة/ السعودية، العدد : 35، مارس 2006، ص121.

[2] المرجع نفسه، ص117.

[3] ماجدة حمود : إشكالية الأنا والآخر، سلسلة عالم المعرفة رقم 398، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت د ط، مارس 2013، ص48.

[4] ماجدة حمود : إشكالية الأنا والآخر ، ص22.

[5] هانس كينغ : لا سلام عالمي دون سلام ديني، ص 116،117.

[6] حميد لحميداني، الرواية المغاربية .. الهوية والتفاعل مع الآخر، ضمن مجموعة من الباحثين، الأدب المغاربي اليوم (قراءات مغربية)، منشورات إتحاد كتّاب المغرب، ط1، 2006، ص21.

[7] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، ص17.

[8] معجب الزهراني، صورة الغرب في كتابة المرأة العربية، ضمن : مجموعة من المؤلفين : أفق التحولات في الرواية العربية، دار الفنون – عمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، دار الفارس – عمان، ط1، 1999، ص55.

[9] عبد الرحمن التمارة، سردية التفاعل الحضاري في رواية من يبكي النوارس لزهرة المنصوري، مجلة آفاق، إتحاد كتاب المغرب، العدد : 80/79، ديسمبر 2010، ص214.

[10] هانس كينغ، لا سلام عالمي دون سلام ديني، ص119.

[11] نبيل سليمان، أسرار التخييل الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب-دمشق، دط، 2005، ص216.

[12] ينظر: عمارة لخوص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، الدار العربية للعلوم ناشرون-بيروت، منشورات الاختلاف-الجزائر، ط2، 2006، ظهر الرواية.

[13] ميشيل ريتشاردسون، خبرة الثقافة، ترجمة : خالدة حامد، مجلة نوافذ، العدد : 30، ديسمبر 2004، ص 145.

[14] دومنيك شنبر، الحداثة والمثاقفة (حالة العمال المهاجرين)، ترجمة : عبد السلام فزازي، مجلة نوافذ، العدد : 20، يونيو 2001، ص124.

[15] ابراهيم سعدي، الجنس والهجرة وجدلية الذكورة والأنوثة، ضمن : مجموعة من المؤلفين، السرد والحكاية قراءات في الرواية المغربية، تنسيق : شعيب حليفي، منشورات كلية الآداب بنمسيك-الدار البيضاء المغرب، ط1، 2010، ص111.

[16] فايد محمد، الرواية المكتوبة بالعربية في الجزائر اتجاهاتها وقضاياها الفنية، رسالة دكتوراه (مخطوط)، جامعة سيدي بلعباس/الجزائر، 2013-2014، ص217.

[17] عبد الرحمن التمارة، سردية التفاعل الحضاري في رواية من يبكي النوارس لزهرة المنصوري، ص216.

[18] عمارة لخوص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، ص38.

[19] الرواية، ص.39

[20] الرواية، ص.02

[21] الرواية، ص40/.41

[22] الرواية، ص.64

[23] الرواية، ص.65

[24] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، ص23.

[25] الرواية، ص.22

[26] الرواية، ص.130

[27] الرواية، ص.98

[28] عبد الرحمن التمارة، سردية التفاعل الحضاري في رواية من يبكي النوارس لزهرة المنصوري، ص210.

[29] الرواية، ص.10

[30] الرواية، ص.50

[31] عبد الرحمن التمارة، المرجع السابق، ص201.

[32] الرواية، ص.117

[33] الرواية، ص.110

[34] الرواية، ص.59

[35] الرواية، ص .59

[36] الرواية، ص.59

[37] الرواية، ص.81،82

[38] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، ص23.

[39] عبد الرحمن التمارة، سردية التفاعل الحضاري، ص211.